من أسرار التعريض في القرآن الكريم

د. عبود حميودة
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

تمهيد:

ممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم- الذي هو كتاب الله تعالى- فيه هداية للناس «**ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**»[1]،حين استعمال الصورة البيانية من كناية وتعريض ونحو ذلك من الصور البيانية، لم يقصد هذه الصور لذاتها، بل لغايات وأهداف تتناسب مع غايته الكبرى؛ وهي هداية الناس إلى كل خير. فالصورة (منهج فوق المنطق لبيان حقائق الأشياء)[2].

يقول مصطفى صادق الرافعي: ولسنا نقول إنّ القرآن جاء بالاستعارة لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز أو الكناية لأنها كناية أو ما يطرد مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريد به وضع معجزة في تناسق ألفاظه وارتباط معانيه على وجه السياستين من البيان والمنطق[3].

وإذا كانت للصورة البيانية في القرآن أهداف كثيرة فمنها: أن يدلّك على إعجاز القرآن البياني فالأسلوب الحقيقي هو الأبلغ والأتمّ والأصلح في مكانه والأسلوب المجازي كذلك، وذلك في القرآن كلّه (فمن أظهر الفروق بين أنواع

---

1 سورة البقرة:02.

2 د. مصطفى ناصف: الصورة الأدبية ، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص 08.

3 مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية صيداء بيروت، لبنان،1426 هـ/ 2005م، ص210.

البلاغة في القرآن، وبين هذه الأنواع من كلام البلغاء، أنّ نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاء طبيعيا بحيث يبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تبنى هي عليه، فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه، فضلا عن أن يفي به وفضلا عن أن يربى عليه، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع[1].

وإذا كان القرآن يستخدم صور البيان بشكل معجز، فإنه يبغي وراء ذلك الإعجاز، تنبيها للعقول حتى تأخذ معان، وتأثيرا في النفوس حتى تترك شرا أو تفعل خيرا. يقول د. صلاح الدين عبد التواب: وحتى الآيات التي تناولت أمر العقيدة، وتولت عرضها، إذا نحن نظرنا إليها، وجدناها تخاطب العقل والقلب معا، فلا هي بالألفاظ والعبارات الرتيبة التي يضيق بها سامعها أو قارئها، ولا هي بالمعاني المجردة الغامضة، التي تثير اللبس والإبهام وإنما هي الصور الأدبية الرائعة التي جمعت في إطارها رونق اللفظ، ورشيق المعنى، وجمال الاتساق حتى كانت تلك الصور الحية النابضة، التي تملاها الخيال، فلا يكاد ينتهي عنها إلا وقد انطبعت في النفس، وأثرت في الحس وأقنعت العقل وأمتعت الوجدان[2].

ولذلك فالدراسة البيانية للقرآن الكريم، لا تقف عند حدود استخراج صور البيان من تشبيه واستعارة وكناية ونحو ذلك وبيان أنواعها، بل يجب البحث في غاياتها وأسرارها، فقد استخدمت على نحو يمكن معه اكتشاف معنى، أو استنباط حكم في قضايا مختلفة اعتقاديه وأخلاقية ونفسية وغير ذلك. يقول الأستاذ ناصر حامد أبو زيد: إنّ عملية التفسير تنصب على النصوص اللغوية، وتقوم على تحليل المعطيات اللغوية للنص، ولكنها تهدف إلى الكشف عن مستويات المعنى الباطني...

---

[1] المرجع نفسه: ص174.

[2] د. صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، مكتبة لبنان،ناشرون،ط1،ص 02.

وتصبح مهمة المفسر هي النفاذ إلى عالم النص وحل مستويات المعنى الكامن فيه، الظاهر والباطن، الحرفي والمجازي، المباشر وغير المباشر[1].

ومن الضرورة بمكان أنه ينبغي على مفسر القرآن لغويا وبيانيا، أن لا يهدف إلى إظهار الإعجاز البلاغي من حيث المسائل البلاغية، والبحث عن جماليات الشكل، بل يكون هذا المدخل إلى البحث في المعاني التي تضمنتها الحروف والكلمات والصور البيانية، فلعلمي (المعاني والبيان مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز)[2].

وقد بيّن ابن خلدون أنَ استنباط أحكام الشريعة من القرآن مرتبط بجملة من العلوم منها (علم البيان)، فهو يربط بين الدراسة البيانية وبين استنباط الأحكام، يقول: أركان علوم اللسان العربي أربعة: اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة[3].

إنّ من أهداف القرآن الترغيب في الدار الآخرة، والتزهيد في الحياة الدنيا، والحياة الدنيا قد زيّنت حتى أنّ أكثر النفوس لا تقوى على ترك التعلق بها والنظر إلى الآخرة، فكان من أساليب القرآن أن استخدم الأسلوب البياني علّه يلقى من بعض النفوس قبولا. يقول د. عبد الفتاح لاشين: دعا القرآن إلى الإيمان بالبعث وباليقين بالدار الآخرة، لكن تلك الدعوة لقيت صدودا من الكافرين، وعنادا من المشركين، فكان لا بد أن يتضمن القرآن من أساليب البيان والتصوير ما يزهّدهم في الدنيا

---

1 نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط7، 2005م، ص 46.

2 الشيخ خالد عبد الرحمن العك: أصول التفسير وقواعده ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،ط4،1424هـ/2003م، ص 43.

3 ابن خلدون: المقدمة،دار القلم، بيروت، لبنان، ص 545.

ويرغبهم في الآخرة، ويحتوي من صور التمثيل ما يصوّر قصر الحياة الدنيا ويسموا بالحياة الآخرة ويكشف لهم عن حقيقتها ويجسم فناء هذا العالم بالجمال والآمال[1].

وجاء في كتاب (من روائع القرآن): ثم إن التصوير القرآني يتدرج في مظاهر متعددة بوسائل مختلفة وكثيرا ما تجد هذه المظاهر كلها مجتمعة في نص واحد، وقد تجد بعضها متفرقا في نصوص متعددة، فأول مظهر للتصوير، هو إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والمتخيلة[2].

المظهر الثاني: تحويل الصور من شكل صامت إلى متحرك حي.

المظهر الثالث: تضخيم المنظر وتجسيمه حينما يكون الجو والمشهد يقتضيان ذلك، والوسيلة القريبة إلى تحقيق هذه المظاهر(لا تعدو أن تكون استعارة، أو مجازا مرسلا، أو تشبيها وتمثيلا، وهذه الوسائل التي وضع عليها علم البيان، إنما هي قواعد استخلصت واستنبطت من التصوير الذي انطوى عليه أسلوب القرآن الكريم فالقرآن هو أساس لهذه القواعد وليس العكس كما قد يتوهم)[3]. وهذا التصوير الرائع للمعاني من خلال صور البيان هو الذي يترك أثرا فكريا أو نفسيا.

وبمناسبة الحديث عن أهداف وأبعاد الصورة البيانية في القرآن على وجه العموم، فلا بأس أن أبرز بعض أسرار التعريض، ذلك أن أصول البيان أربعة (أصلان ذاتيان، وهما المجاز والكناية، وواحد وسيلة وهو التشبيه وواحد جزء من أصل وهو الاستعارة[4].

---

[1] د، عبد الفتاح لاشين: البيان في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985 م، ص 52.

[2] د، محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن الكريم، دار الفارابي للمعارف، دمشق، سوريا، 1427هـ / 2007م، ص 199

[3] المرجع نفسه: ص 199.

[4] د، عبد الفتاح لاشين: البيان في ضوء أساليب القرآن ، ص 52.

حقيقة التعريض وأثره:

أ-معنى التعريض:

التعريض (هو المعنى الحاصل عند اللفظ به، فالتعريض حاصل بغير اللفظ وهو السياق والقرائن)[1]. يعرفه د. بكري شيخ أمين: التعريض هو أن يطلق الكلام ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق[2].

والتعريض من الكناية لأنّ الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، فإن كانت (عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضا، فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في "كثير الرماد" فالمناسب أن تسمى تلويحا، لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، فإن كان فيها نوع خفاء، فالمناسب أن تسمى رمزا لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية، وإلا فالمناسب أن تسمى إيماء وإشارة)[3].

ب- الفرق بين الكناية والتعريض:

- الكناية واقعة في المجاز ومعدودة منه، بخلاف التعريض فلا يعد منه، لأن التعريض مفهوم من جهة السياق، فلا تعلق له باللفظ، لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه.

- التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ، بخلاف التعريض فإنّ دلالاته من جهة القرينة والإشارة، ولا شك أنه كل ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح.

---

[1] المرجع نفسه : ص272.

[2] د. بكري شيخ أمين: البلاغة العربية (علم البيان) في ثوبها الجديد ، دار العلم للملايين، ط10، 2006م، ج2، ص153.

[3] د. بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، ج2، ص152.

- الكناية تقع في اللفظ المفرد والألفاظ المركبة بخلاف التعريض فهو لا موقع له في اللفظ المفرد[1].

ج- أثر التعريض:

التعريض له أثر بليغ في النفوس لأنه يعين صاحبه على إخفاء ما يريد، من عتاب أو نقد أو سؤال أو شكاية حتى لا يفهم مراده إلا من يقصده بالتعريض، لما علم من أن التعريض إنما يفهم من أحوال خارجة عن اللفظ- لا من اللفظ- وهذه الأحوال قد تكون معلومة للمقصود بالكلام دون بقية الحاضرين[2]. قال الثعالبي: العرب تستعمل التعريض في كلامها فتبلغ إرادتها بوجه ألطف وأحسن من الكشف والتصريح ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف في كل وجه، وقد جعل الله في خطبة النساء جائزا فقال: «**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**» (البقرة 235). ولم يجز التصريح[3].

---

1 الإمام الخطيب القزويني:الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتاب اللبناني، 2007م/1424هـ، ص 466.

2 عبد الفتاح لاشين: البيان في ضوء أساليب القرآن، ص278.

3 المرجع نفسه: ص281.

من أسرار التعريض في القرآن الكريم(تطبيقات):

1- قال الله تعالى: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** »[1].

لم يترك الإسلام جانبا من جوانب الحياة إلا وبين للمسلم ما يجب له وما يجب عليه ووضع له الضوابط التي ينبغي على المسلم أن ينضبط بها، أولا: أن يكون مسلما بحق يأتمر بآمر خالقه. وثانيا: ليتحقق له النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

ومن الجوانب المهمة في حياة المسلم أكله وشربه، ولقد أحلّ للمسلم أن يأكل من الطيبات، ويترك الخبائث، ولذلك فالحلال والحرام في الإسلام مرتبط أساسا بمصلحة الإنسان المادية، ثم بعد ذلك مرتبطة بالابتلاء للإنسان ليتميز من يطيع الله تعالى ومن يتردد ويعصي.

وعندما تحدث الله تعالى عن الطيبات جاء بلفظ العموم «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**». هكذا« **مِنْ طَيِّبَاتِ** » وفيها معنى الكثرة، فالطيبات كثيرة كل منها ما تشاء، واختر منها ما تريد. ولما تحدث عن الحرام جاء بأداة القصر والتوكيد « إنما»، ليفيد أن الحرام في الإسلام قليل. واستخدام أسلوب القصر والحصر« إنما» فيه تعريض بالمشركين فقوله تعالى:«**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا**

---
[1] سورة البقرة: 173/172.

إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »: (استئناف بياني ذلك أن الإذن بأكل الطيبات يثير سؤال من يسأل ما هي الطيبات فجاء هذا الاستئناف مبينا المحرمات وهي أضداد الطيبات، لتعرف الطيبات بطريق المضادة المستفادة من صيغة الحصر، وإنما سلك طريق بيان ضد الطيبات للاختصار، فإن المحرمات قليلة، ولأن في هذا الحصر تعريض بالمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيرا من الطيبات وأحلوا الميتة والدم، ولما كان القصر هنا حقيقيا لأن المخاطب به هو المؤمنون وهم لا يعتقدون خلاف ما يشرع لهم، لم يكن في هذا القصر قلب اعتقاد أحد وإنما حصل الرد به على المشركين بطريقة التعريض)[1].

فمن أسرار التعريض في هذه الآية بيان أن الحرام في دين الله تعالى "الإسلام" قليل، بينما المباح والحلال كثير... وما مثل الحرام في الإسلام بالنسبة لما أحل الله لعباده، إلا كمثل الشجرة وسط جنة مليئة بما طاب ولذ.

« وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ »[2].

والحقيقة هي أن ما حرم الله تعالى على عباده، إنما هو من قبيل الخبيث الضار، الميتة والدم والخنزير و(الميتة تأباها النفس السليمة وكذلك الدم، فضلا على ما أثبته الطب- بعد فترة طويلة من تحريم القرآن والتوراة قبله بإذن الله- من تجمع الميكروبات والمواد الضارة في الميتة والدم ولا ندري إن كان الطب الحديث قد استقصى ما فيها من الأذى أو إن هناك أسباب أخرى للتحريم لم يكشف عنها بعد للناس... والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم... ومع هذا فقد حرمه الله منذ

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج2، ص 155.

[2] سورة البقرة: 35.

ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة)[1].

و المؤمن العارف بربه يخضع لحكم الله تعالى في كل ما أمر وما نهى، سواء عرف علة التحريم والتحليل أم لا، وهذا لا يمنع المسلم من البحث عن أضرار ما حرم الله تعالى، ليزداد إيمانا ويستمر ثباتا. ليكون إيمانه،« **نُورٌ عَلَى نُورٍ** »[2]، نور المعرفة من الوحي الإلهي، ونور المعرفة من التجارب العلمية الموصلة للحقائق.

2- قال الله تعالى: «**الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** »[3].

قوله تعالى: «**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**» بيان لأول مواصفات المتقين الذين اهتدوا بالقران الكريم، وهي صفة الإيمان بالغيب. والإيمان بالغيب له معنيان في الآية: المعنى الأول: أي يؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر والملائكة وغيرها من أركان الإيمان التي غابت عن حس الإنسان، ولكن صدق بها المؤمن لوجود أدلة على ذلك، وعاها بعقله وأدركها بعلمه. والمعنى الثاني: يؤمنون (بظهر الغيب ولا ينافقون تعريض بالمنافقين ومدح للمؤمنين)[4]. فالمنافقون إذا «**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** »[5].

---

[1] سيد قطب: في ظلال القرآن ، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، السعودية،ط12، 1406هـ/ 1986 م ، ج1،ص150.

[2] سورة النور: 35

[3] سورة البقرة:2/3.

[4] الإمام محمود بن أبي الحسن النيسابوري: إيجاز البيان عن معاني القرآن، ت، د، حنيف بن حسن القا سمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط1، 1995م، ص65.

[5] سورة البقرة:14.

وإذا التقوا باليهود والكفار، أكدوا لهم أنهم معهم وليسوا مع المؤمنين، فلهم وجهان، وجه مع المؤمنين ووجه مع الكافرين، وهذا نفاق.

والقرآن الكريم وهو يرتي الفرد المسلم ثمّ المجتمع المسلم، يبيّن للمؤمن مواصفات المؤمنين الصادقين، ويدعوهم للاتصاف بها، ويبيّن لهم علامات المنافقين، ويحذرهم من الاتصاف بها. وفي هذه الآية «**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** » توجيه للمؤمن أن يكون في سرّه كما في علنه، فهو صادق صريح، ظاهره كباطنه، ما يقوله هنا يقوله هناك، وما يقوله مع هذا يقوله مع ذاك، وهذه الصفة تفرق وتميّز بين المؤمن الصادق والمؤمن الكاذب، أو بين المؤمن بحق وبين مدّعي الإيمان وهو المنافق .فمن أبعاد التعريض في قوله تعالى: «**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**» بيان وتوجيه للمؤمن أن يكون صادقا في كل أحواله وفي كل مكان وزمان لأنه يؤمن برب عليم بصير، ويؤمن برب يجازي على ما ظهر وعلى ما خفي.وبهذا الصدق الباطني والظاهري، يصلح المسلم أن يكون خليفة لله تعالى في أرضه، ويكون أهلا ليستنير به الآخرون ويصلح أوضاع العالم، لأنّه لا يكذب أبدا، وما يقوله علنا هو ما يسرد، فهو لا ينافق، لأنه لا يخشى إلا الله تعالى، ولا يرجو إلا ثوابه.

3– قال الله تعالى: «**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** »[1].

أنزل الله تعالى القرآن الكريم لهداية الإنسان وتربيته فكريا ونفسيا وسلوكيا، والمؤمن الصادق هو من آمن بقلبه وعمل بجوارحه، ولئن كان للإيمان بالله تعالى أهمية كبرى، فإنه لا معنى لهذا الإيمان ما لم يقرنه صاحبه بأعمال.فقوله تعالى« **وَأَقِيمُوا**

[1] سورة البقرة:43.

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» فيه (أمر بأعظم القواعد الإسلامية بعد الإيمان والنطق بكلمة الإسلام وفيه تعريض بحسن الظن بإجابتهم وامتثالهم للأوامر السالفة وأنهم كملت لهم الأمور المطلوبة وفي هذا الأمر تعريض بالمنافقين ذلك أن الإيمان عقد قلبي لا يدل عليه إلا النطق، والنطق اللساني أمر سهل قد يقتحمه من لم يعتقد إذا لم يكن ذا غلو في دينه فلا يتحرج أن ينطق بكلام يخالف الدين إذا كان غير معتقد مدلوله، كما قال تعالى: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا »، فلذلك أمروا بالصلاة والزكاة لأن الأولى عمل يدل على تعظيم الخالق والسجود إليه وخلع الآلهة، ومثل هذا الفعل لا يفعله المشرك لأنه يغيظ آلهته بالفعل ويقول الله أكبر، ولا يفعله الكتابي لأنه يخالف عبادته. ولأن الزكاة إنفاق المال وهو عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد أخروي)[1]. جاء في(الكشاف):(« وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم في دين الله)[2].

ويستنتج مما سبق ذكره أنّ الإيمان إن لم يقترن بعمل وطاعة لله تعالى في كل أمر، فلا قيمة لهذا الإيمان.

إنّ في قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » تعريض بمن نطق لسانه بالشهادتين وادّعى الإيمان، ولكنه لم يضحّ بماله في سبيل ربّه، ولم يتعب نفسه بأداء الواجبات، وفي هذا تصحيح لتصور المسلم حول قضية الإيمان، فالإيمان ليس مجرد قول أو اعتقاد فحسب، بل هو خضوع لله تعالى. ولئن كان الخطاب موجّه للمنافقين زمن نزول الوحي، فإنه يشمل كل إنسان اتّصف بهذا حيث آمن بلسانه واعتقد بعقله ولكنه لم يخضع لأحكام الله تعالى. فما

---

[1] ابن عاشور: التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ج(123)، 1984 م ، ص472.

[2] الإمام الزمخشري: الكشاف ، ت: محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط3، 1398هـ/ 1977م، ج(41)، ص 66.

معنى تعطيل الشريعة الإسلامية عن التطبيق في معظم البلدان العربية سياسيا واقتصاديا وفي الحدود؟! وما معنى وجود الخرافات و سلوكات تخالف ما أمر الله تعالى من غش ورشوة وغير ذلك؟!

إنّ قادة المسلمين اليوم والمصلحون عليهم واجب تربية الناشئة على الإيمان الصحيح، إيمان الاعتقاد وإيمان العمل بما يحقق توحيد الله تعالى فكرا وسلوكا.

4- قال تعالى: « **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ** »[1].

في الآية توجيه للمؤمنين إلى حسن الظن بالمؤمنين، كل المؤمنين ناهيك أن يكونوا من بيت النبوة أهل الطهر والعفاف، والتعبير في الآية فيه(تعريض بأن ظن السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلة بصارة فكفى بذلك تشنيعا لهم وهذا توبيخ على عدم إعمالهم النظر في تكذيب قول ينادي حاله ببهتانه وعلى سكوتهم عليه وعدم إنكاره)[2]. فالإفك الذي هو(أخبث أنواع الكذب والأباطيل المختلقة)[3]. واضح زيفه، ذلك أنه من أقاويل المنافقين، وتجاه أطهر البيوت، بيت النبوة، وفي التعبير انتقال من الخطاب إلى الغيبة:« **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ** » فلم؟

عدل عن الخطاب إلى الغيبة(ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفاف وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب)[4].

---

[1] سورة النور: 12.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج18، ص175.

[3] محمد إسماعيل إبراهيم: معجم ألفاظ الأعلام القرآنية، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمجمعات وإحياء التراث، مصر، 1410 هـ/ 1990م، ج2، ص40.

[4] الزمخشري: الكشاف، ج3، ص 53.

فواجب المسلم أن يحسن الظن بالمؤمنين، لأن حسن الظن بهم حق من حقوقهم، وإنما يسوء ظن المنافقين، الذين يبطنون الكفر والحسد والغل. ومن أسرار التعريض هنا:

- سوء الظن بالمؤمنين من مواصفات المنافقين، ومن ثمرات النفاق.

- وجوب دفاع المؤمن عن أخيه المؤمن إذا تعرض لظلم، فحسن الظن بالمؤمن مدعاة للدفاع عنه.

في قوله تعالى: « **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ** » معنى بليغ وتوجيه رائع، إنه لم يقل«بعضهم خيرا» وإنما(بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) والمقصود أن المجتمع المسلم يعيش أفراده كجسد واحد، وأنّ كل واحد يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فإذا كان المؤمن يكره أن يساء الظن به فكذلك إخوانه المؤمنون، وإذا كان وهو بريء لا يشك في براءته فكذلك لا يشك في براءة المؤمنين من حوله إذا اتهمهم منافقون.

5- قال تعالى: « **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** »[1].

مع أنّ أسلوب الآية أسلوب صريح في بيان أنّ للإنسان ما كسب، بمعنى أنّ الجنة أو الثواب عموما يكون لكل شخص على ما قدّم من عمل، ولا يثاب بناء على ما قدّم غيره من آباء أو غيرهم، فإنّ في الآية تعريضا بأهل الكتاب وخاصة اليهود. هذه الآية (عقبت الآيات المتقدمة من قوله تعالى: «**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ». لأنّ تلك الآيات تضمّنت الثناء

[1] سورة البقرة: 134.

على إبراهيم وبنيه والتنويه بشأنهم و التعريض بمن لم يقتف آثارهم من ذريتهم وكأنّ ذلك قد ينتحل منه المغرورون عذرا لأنفسهم فيقولون نحن وإن قصّرنا فإنّ لنا من فضل أبائنا مسلكا لنجاتنا، فذكرت هذه الآية لإفادة أنّ الجزاء بالأعمال لا بالاتكال. والخطاب موجّه إلى اليهود أي لا ينفعكم صلاح آبائكم إن كنتم غير متّبعين طريقتهم. فقوله:« **لَهَا مَا كَسَبَتْ**» تمهيد لقوله « **وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ**». إذ هو المقصود من الكلام[1].

فمن أراد ثواب الآخرة فليعمل، فعمل الغير ثواب لهم، فإنّ(أحدا لا ينفعه كسب غيره متقدما كان أو متأخرا فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم)[2]. ولئن كان التعريض موجّه لليهود، فإنّ العبرة تشمل كل إنسان عوّل على ما عمل غيره ولم يعوّل على عمله، والمعنى أنّ المسلمين في زماننا كثيرا ما يفتخرون بما قدّم الأجداد والآباء من فتوحات، لكن لا ترى لهم بطولات ولا نجاحات كبرى.

نعم إنّ ذكر الآباء والأجداد والافتخار ببطولاتهم يكون جيدا إذا كان فيه تحفيز وتشجيع لفعل ما فعلوا وأحسن.إنّ من أسرار التعريض في قوله تعالى: « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » بيان أنّ الأعمال التي يقدّمها الإنسان هي التي ترفع قدره وتبلغه الفلاح عند الله تعالى، لا الاتّكال على أعمال الآخرين.

6- قال الله تعالى:«**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ**

---

[1] ابن عاشور:التحرير والتنوير، ج1، ص 835..

[2] الزمخشري: الكشاف، ج1، ص 95.

«وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» [1] .

هؤلاء هم اليهود، ما إن يجدوا فرصة للنيل من المسلمين إلاّ فعلوا ذلك، فحين أمر الله تعالى المؤمنين بالتوجه إلى البيت الحرام في الصلاة، بدل التوجه إلى بيت المقدس، ظنّ اليهود أنّها فرصة للنيل من عقيدة المسلمين: حيث أشاعوا أنّ تغيير القبلة معناه، القبلة الأولى فيها خطأ فإن كانت القبلة الأولى صحيحة فالاتجاه نحو المسجد الحرام فيه خطأ، وهكذا أرادوا تشكيك المسلمين في دينهم فبيّن الله تعالى للمؤمنين أنّ مسألة تزكية النفوس، وقضية البر، لا تتعلّق بالاتجاه نحو المسجد الحرام أو المسجد الأقصى وقد استعمل أسلوب التعريض باليهود. فقوله:« **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ** » فيه (إقبال على خطاب المؤمنين بمناسبة ذكر أهل الكتاب وحسدهم المؤمنين على اتّباع الإسلام مراد منه تلقين المسلمين الحجة على أهل الكتاب في تهويلهم على المسلمين إبطال القبلة التي كانوا يصلون إليها ففي ذلك تعريض بأهل الكتاب فأهل الكتاب رأوا أن المسلمين كانوا على شيء من البر باستقبالهم قبلتهم فلما تخلوا عنها لمزوهم بأنهم أضاعوا أمرا من أمور البر، يقول مروا عن هذا وأعرضوا عن تهويل الواهنين وهب أن قبلة الصلاة تغيرت أو كانت الصلاة بلا قبلة أصلا فليس له أثر في تزكية النفوس واتصافها بالبر، فذكر المشرق

[1] البقرة :177.

والمغرب انتصار على أشهر الجهات أو هو للإشارة إلى قبلة اليهود وقبلة النصارى لإبطال تحويل الفريقين على المسلمين حين استقبلوا الكعبة)[1].

فالبرّ عند الله تعالى هو إيمان بالله تعالى فيه صدق وحب، وهو أعمال صالحة من صلاة و إنفاق وجهاد في سبيل الله... نعم إنّ التوجّه إلى القبلة في الصلاة كما أمر الله له شأن، لأنّه من أمر الله تعالى ولكنّه إذا قيس بالطاعات الأخرى فلا قيمة له، فأهل الكتاب بلا إيمان صادق صحيح.. بلا صلاة ولا زكاة ولا جهاد في سبيل الله، فما قيمة توجههم إلى قبلة ما؟!

إنّ من أسرار التعريض بأهل الكتاب في قول تعالى:« **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ** » بيان أنّ التديّن الصحيح يكون بالطاعات والعبادات لا بالأشكال فالصلاة مثلا ليس هي مجرّد استقبال القبلة ولكن هي خشوع وخضوع.يقول سيد قطب: إنه ليس القصد من تحويل القبلة ولا من شعائر العبادة على الإطلاق أن يولي الناس وجوههم قبل المشرق والمغرب.. نحو بيت المقدس أو نحو المسجد الحرام.. وليست غاية البر– وهو الخير جملة– هي تلك الشعائر الظاهرة. في حدّ ذاتها مجردة عما يصاحبها في القلب من المشاعر وفي الحياة من السلوك لا تحقق البر ولا تنشئ الخير.. إنما البر تصور وشعور وأعمال السلوك. تصوّر ينشئ أثره في ضمير الفرد والجماعة، ولا يغني عن هذه الحقيقة العميقة تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب... سواء في التوجه إلى القبلة هذه أم تلك، أو في التسليم من الصلاة يمينا وشمالا، أو في سائر الحركات الظاهرة التي يزاولها الناس في الشعائر[2].

---

[1] ابن عاشور: التحرير والتنوير ، ج2، ص128.

[2] سيد قطب: في ظلال القرآن، م1، ص 153.

ومن هذا التعريض يتعلم المسلم ان الذي يرفع قدر الإنسان عند ربه إنما الأعمال والسلوكات ذات الأثر الطيب الذي يشمل الفرد والمجتمع. ما قيمة أن يرتاد المسلم المساجد ويتوجّه إلى القبلة ثلاثين أو أربعين سنة أو يزيد، ومع ذلك فهو غافل القلب عن ذكر عظمه الله تعالى، بعيد عن التواضع والجود، بل هو بخيل مؤثر للدنيا، كثير الجزع قليل الصبر ، جبان لا ينصر الحق ولو بكلمة؟!

يستخدم القرآن الكريم الصور البيانية و التي منها التعريض على نحو يلائم به لكشف معنى أو استنباط حكم في قضايا مختلفة اعتقادية، أخلاقية ونفسية وغير

- والأمثلة الواردة في هذا المقال (من أسرار التعريض في القرآن الكريم)توضح ذلك، ومن المعاني المستخلصة: **– دائرة الحلال أوسع- الجزاء على الأعمال لا بالاتكال– التدين الصحيح سلوكات لا شكليات.**
- سوء الظن بالمؤمنين من مواصفات المنافقين، ومن ثمرات النفاق.– وجوب دفاع المؤمن عن أخيه المؤمن إذا تعرض لظلم فحسن الظن بالمؤمن مدعاة للدفاع عنه.– الإيمان إن لم يقترن بعمل وطاعة لله تعالى في كل أمر، فلا قيمة لهذا الإيمان..